التحرك لتأكيد حقوقه، ولرفض الهامشية، ولتحدي الرؤية الصهيونية، وحاول تغيير موازين القوى لصالحه، يصبح مصدر خطر حقيقي، ويصبح من الضروري ضربه لتهشيمه وتهميشه، ويصبح «التسامح» مرفوضاً، ويتولى «المتطرفون» القيادة.

ويمكننا توظيف القوانين العامة هذه، او التعميمات هذه، بخصوص الادراك الصهيوني للعرب. فنحن، على سبيل المثال، يمكننا ان نعرف حدود الانجازات التي يمكن ان يحققها الاعلام العربي من خلال معرفتنا بحدود الادراك. فنحن ان حاولنا تحسين «صورتنا» تجاه العدو (الصهيوني، او الاميركي)، فان هذه الصورة، مهما بلغت من ايجابية وبريق، لا قيمة لها على الاطلاق، بل يمكن ان توظف ضد صالحنا. وقد ادرك الثوار في فيتنام ذلك، فلم يكن لهم مكاتب اعلامية في الخارج، انما كان عندهم مقاتلون في الداخل. وقد تغير ادراك الشعب الاميركي والشعوب الغربية تجاههم بتزايد عدد الجثث التي كانت تعود لتدفن؛ وتحول الرجال الصفر الصغار والمتخلفون (وممثلو الخطر الاصفر) الى ابطال يدافعون عن الوطن. وعرف الناس حقيقة آلة الحرب الاميركية التي كانت تفتك بالاخضر واليابس هناك.

هذا لا يعني اننا نسقط اهمية الاعلام تماماً من حسابنا، فنحن لم نسقط قيمة الادراك. فالواقع لا يفرض نفسه على عقل الانسان بشكل مباشر، وانما من خلال طيف ادراكي. كل ما اود قوله هو انه، من خلال دراستنا، حاولنا ان نبيّن ان الادراك (وبالتالي الاعلام) يترك صورة في الوجدان لا تؤدي الى سلوك محدد بالضرورة؛ وما يحدد السلوك هو الادراك الذي تسانده القوة اللازمة. ونحن، في نهاية الامر، نعيش في عالم ليس من صنعنا، وهو عالم يؤمن بالحواس الخمس وبكل ما يقاس، ولا يعترف كثيراً بالحق، او الخير، او الجمال. ولذا، لا بد وان نضغط على حواس اعدائنا الخمس بكل ما اوتينا من قوة حتى يعرف الآخر ان العربي الحقيقي ليس مجرد صورة في وجدانه يمكنه تناسيها، وانما هو قوة مادية يمكن ان تسبب له خسارة فادحة، ان هو تجاهلها او حاول تهميشها وتهشيمها.

ولعل هذا هو القصور الاساسي في محاولات التوصل الى السلام في اطار كامب ديفيد. فقد ظن مهندسو هذه الاتفاقية انهم من طريق رفع رايات السلام سيغيرون صورة العربي في وعي العالم، وان هذه الصورة ستخلق زخماً وديناميةً تفرض على الاسرائيليين ان يصلوا الى اتفاق عادل او شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماماً. فبعد الاسابيع الاولى، وبعد ان انتهت مهمة عدسات التيلفزيون الساخنة، ظهرت حسابات القوة الباردة التي فرضت منطقها الثلجي البارد، القاسي، على الجميع.

وقد كنت على اتصال بالوفد المفاوض في ذلك الوقت؛ اذ تصادف ان معظم اعضائه كانوا اما اصدقاء لي او بعضاً من طلبتي من المعهد الدبلوماسي في مصر. وقد اخبرني احدهم انه، بعد ان قبل انور السادات بشروط كامب ديفيد، كما فرضها بيغن وكما رفضها اعضاء الوفد المصري، طلب ان تخصص رقعة ما في القدس ترفع عليها الاعلام العربية حتى تكون «غنيمة اخرى» يعود ليتباهى بها. وكان تعليق احد اعضاء الوفد الاسرائيلي هو ان ترفع الاعلام على المقابر العربية («سلام المقابر» الذي لم يرده وايزمان لنفسه). اما دايان، فقال: «السادات يريد بقشيشاً» ! اي انه نظر الى السادات من خلال الطيف الادراكي الصهيوني وحوّله الى انسان متخلف هامشي، شحاذ، ليس له حقوق، يمكن ان «تهبه» شيئاً، ان اردت، من قبيل الاعتدال الصهيوني. وقد كان دايان اكثر واقعية من السادات؛ فحسابات القوة الباردة في عالمنا لا تعرف الحق والحقيقة. ولو كان هناك وراء السادات دبابة عربية، تقف شامخة ، لما رآه دايان شحاذاً يقف على عتباته.

ومرة اخرى، على الرغم من معرفتي بمنطق القوة، فانا لا اكن له حباً ولا احتراماً، ولكنني، كما قلت، في عالم ليس من صنعنا، وهو عالم قبيح، صنع، اساساً، في الغرب، في القرن التاسع عشر؛ وان